أولاً: طلائع وبدايات المدن (بين العصر الحجري المعدني وعصر فجر السلالات)

تل الصوان

مستوطنة تل الصوان التي تقع على بعد 11كم جنوب سامراء من اكثر مستوطنات هذه المرحلة تميزاً ، لقد تقدم نظام الموصلات حيث بدأ الانسان يستخدم الحيوان في نقل البضائع حيث وجد ذلك مرسوماً على أحد جدران المساكن ، وكذلك وجدت صورة للعجلة على كرة من وعاء من فخار طور حلف الذي يعود الى اواخر الالف السادس ق.م يعتقد بأنه استخدم في النقل والمواصلات، استخدم الانسان في هذه المرحلة مواد انشائية جديدة مثل الجص واللبن المصنع بقوالب ذات اشكال هندسية منتظمة ، وكذلك استخدم الحجر والطين والاخشاب في الابنية المختلفة ، من الناحية الدينية بدأت عبادة الالهة الام وتماثيلها المصنوعة من الرخام بدأت واضحا في بعض الابنية التي مثلت المعابد الاولى في العراق التي وجدت في هذا التل وكذلك في موقع يارم تبه وحسونة والاربجية كانت على شكل حرفT وتحتوي على مجموعة من الغرف ، وكذلك وجدت ابنية كانت تسمىTholoi التي أكد على وجودها الباحثان فؤاد سفر وسيتون لويد في حسونة وجود هذه الابنية المتعدد يدل على وجود تعدد مهني واجتماعي واتساع في طبقة الكهنة.

ان تصاميم الوحدات السكنية تدل على ان الاسرة البسيطة ظلت تشكل جزء هاما في المجتمع ، اما من ناحية الجانب الاقتصادي فنرى بان الانسان في هذه المرحلة قد سيطر على عملية الانتاج افضل من خلال معاملة مع فائض الانتاج حيث وجدت مخازن بشكل واسع ومتعدد في الابنية مثل ماعثر عليه في (ام الدباغية) التي تقع بين حسونة وسامراء حيث عثر على جرار فخارية كبيرة مدفونة تحت الارض وقرب المساكن ، وفي تل الصوان وجدت مخازن في ابنية مستقلة مخصصة للخزن ، زيادة الانتاج يدل على تطور نظام الري من خلال شق القنوات ، اما بالنسبة للصناعة نجده واضحا في الكثير من الجوانب حيث نجد بعض الخرز وشفرة صغيرة من النحاس موجودة في قبور الطبقة السفلى من هذا التل.

وقد دلت الابنية على التقدم من الناحية العمارية من حيث التخطيط حيث وجدت المدن الدائرية والمستطيلة اضافة الى التخصص في الابنية ووجود الساحات العامة والخضراء والسور والضواحي، والسور وجد ذو الابراج ومحاط بخندق دفاعي ووجدت اثار سلم مبني من الجص يربط مستوى الارض باعلى السور وهذا السور يعتبر اقدم نظام دفاعي من نوعه في بلاد الرافدين ويعتبر السور الحد الفاصل بين مكونات المدينة (داخل السور) وبين الضواحي (خارج السور ،)اما الابنية العامة، والمساكن : لقد عثر في يارم تبة على مجموعة من المبان تشمل (١٠٠)غرفة وكانت مساكن تلك المستوطنة تحتوي على تنور ومخزن الحبوب وتقع على ازقة ضيقة ،وفي ام الدباغية وجدت وجدت المخازن في ابنية خاصة ووجدت حضائر للحيوانات في ابنية منفصلة عن بيوت الانسان ،اما الساحات المفتوحة الخضراء :وجدت في موقع تل الصوان ويارم تبة تتجمع حول الابنية المتعددة ساحات مفتوحة ، الضواحي التي تشمل القرى الصغيرة التي تقع خارج السور لسكن الفلاحين ورعاة الحيوانات في المناطق زراعية محيطة بسور ، اما الطرق لقد وجدت في هذا المرحلة في تل الصوان وتبة كورة ثلاث انماط من الطرق الداخلية وهي:

1-الازقة الضيقة غير منتظمة التي تتوسط المساكن الصغيرة

2-الطرق الواسعة التي تقع عليها بعض المساكن الكبيرة والابنية العامة

3-الطرق الغير نافذة.

ثانياً: مرحلة انتشار وتوسيع مراكز الاستيطان (٥٠٠٠- ٤٠٠٠ق.م)

وتمتد مع العصر الحجري المعدني للفترات التالية أ- دور حلف ب_ دور العبيد اصبح المعبد في هذا المرحلة واضح المعالم والاستخدام وسميت هذه الفترة بفترة سيادة المعبد التي تمثل وجود نظام اجتماعي جديد يرتكز على التعاون الجماعي بأشراف كهنة المعبد ويدل على وجود نظام اداري اجتماعي واقتصادي جديد وربما كانت بداية حكومة المعبد ، من ناحية الاقتصادية تميزت بتطور نشاط الزراعي وتطور نظام الري وتطور اماكانات الخزن والنقل والمواصلات التي ادت الى تطور التجارة الخارجية والتصدير ، كذلك تربية المواشي وصيد الاسماك يدعم الاقتصاد ايضا ، وهناك تطور واضح بالصناعة حيث استخدم النحاس والرصاص ، وتطور صناعة

العجلات والزوارق والاختام المنبسطة ، عثر على اختام مسطحة وفأس مصنوعة من النحاس في الاربجية ، ووجد في المعابد والقبور حلي ذهبية وعثر على ادوات مصنوعة من البرونز، وعثر على دولاب الخزف حيث ازدهرت صناعة الاواني الخزفية بهذا الدور ،من ناحية العمرانية استخدم الابنية ذات الارتفاع الذي على طابق واحد وتقع بناية المعبد على كتلة عمرانية اخرى هي المصطبة وتعددت المصاطب في ادوارلاحقة التي ثلت فيما بعد بداية عمارة الزقورات في العراق والتي تطورت معها عملية انشاء السلالم والمنحدرات كواسطة للارتقاء بين مستوى الارض والمصطبة ووصولا الى المعبد في القمة ، اما البيوت السكن شيدت باللبن المنتظم في اريدو وتبة كورة وظهرت مساكن للكهنة والحكام وطبقات الشعب الاخربمصفوفة على طرق وازقة متدرجة في السعة والاستقامة والاهمية ووجدت ساحات مفتوحة المزروعة الخضراء.

ثالثاً: مرحلة تطور المدن (٤٠٠٠ – ٣٥٠٠ق.م):

وترافق العصر الحجري الاخير دور العبيد الثالث والرابع ، ودور الوركاء القديم ويشكل الطبقات (١٢–١٧) والوسيط يشكل (٥–٦) ان ازدهار حركة العمران والانشاءات اظهر استخدام انظمة متقنة للبناء كما جاء في تبة كورة في الطبقات(١٣–١٤) شاع استخدام الحجارة كأسس للابنية ، واستخدمو الحجر واللبن وانشاء القوس والقباب واستخدام الطابوق في فترة متأخرة من هذه المرحلة ، واستخدم الانسان القصب والبردي في عمارة الاهوار، وشاع استخدام القارفي هذه المرحلة ايضا.

الوضع الاجتماعي يدل على ان المعبد كان المؤثر الاساس حيث تطورت سلطة كهنة المعبد وتوسع نفوذها حيث اصبحت السلطة المركزية التي تدير البلاد باسم الالهة ، وكانت اولى بوادر (التنظيم المدني).

وكان هناك كاهن أعظم يدير هذه الجماعة من الكهنة جاء نتيجة التطورات الاجتماعية فرضت تلك السلطة وتطورها لتصبح اساس للحركة الاجتماعية والادارية ،اما الجانب الاقتصادي في هذه المرحلة الزراعة وتربية الحيوان شهدت تطور كبير نظراً لتطور نظام الري كأقامة السدود لمقاومة الفيضان والقنوات الاصطناعية للزراعة ، وتطورت صناعة المحاريث والعجلات وعربات النقل اضافة الى صناعة الزوارق والسفن الشراعية والنسيج والدباغة والجلود والاصواف والفخار وصنع التماثيل.

ان فائض الانتاج وتطور وسائل النقل والمواصلات والخزن طور التجارة الخارجية ، حيث الاستورد الانسان الاخشاب والمعادن حيث تاجر مع دلمون ومدن سواحل البحر المتوسط وبلاد عيلام وبلاد الاناظول ووداي النيل ومكان.

اما الجانب العمراني فان التصميم الاساسي للمدن ظل نفس ماموجود في تل الصوان مع اضافة بسيطه التي جاءت نتيجة تطور الاوضاع بشكل عام فالسور فقد وجد مزود بأبراج مراقبة في تبه كورة في دور العبيد الرابع ومحاط بخندق ،اما المعابد زاد عددها وتطورت عمارتها واصبح هناك معابد رئيسية ومعابد ثانوية ،كانت العمارة في هذه المرحلة بطابق واحد بالنسبة للمساكن الاان السلالم والمنحدرات استخدمت بشكل واضح في المعابد كذلك اضافة استخدام بعض الاحجار الملونة والطلاء الابيض للمعابد ، وكان هناك ميناء للمدينة وسوق كبير، اما البيوت سكن عامة الناس بدأت في نهاية دور العبيد تتكون على هيئة مدن صغيرة لتشكل فيما بعد دويلات مدن في عصر فجر السلالات برز منها الوركاء واور واوما ،حيث تعتبر أول ظهور للمدن هو في عصر العبيد.

رابعاً: ازدهار المدن (٣٥٠٠-٢٨٠٠ق .م): تشمل دور الالوركاء الاخير ودور جمدة نصر وفجر السلالات

كان اول اختراع للكتابة في التاريخ في هذه المرحلة قد شكل الحجر الاساس للنهضة الاجتماعية الجديدة، تطور المعبد توسع حدود مهامه ، ظهرت طبقات اجتماعية متميزة اقتصاديا واجتماعيا غيرت مفهوم الديمقراطي التعاوني الذي كان سائداً ، ان تطور الاقتصادي والصناعي والعمراني اوجب وجود تلك الطبقات الحاكمة التي كانت تدير شؤون البلاد الادارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما وجدت في هذا المرحلة دلائل وجود ابنية ادارية غير المعابد في الطبقة الرابعة من الوركاء ، وظهرت الزقورات لاول مرة في دور الوركاء، ومن الناحية الاقتصادية شهدت هذه المرحلة حالة متميزة حيث كان التطور التقني وجود الاختام الاسطوانية ودولاب الفخار واستعمال العجلة وتقدم فن التعدين وانتشار استعمال المعادن وتطور وسائل الانتاج ونحت البارز وتطور نظام الري والتجارة الخارجية.

اما الناحية العمرانية فقد اعتبر سور جمدة نصر نموذجا لاقدم سور في السهل الرسوبي واحيطت مدينة الوركاء بكامل بالاسوار ، تعددت ابنية المعابد نظرا لتعدد الالهة وظهور الزقورة ، والميناء كان جزء هاما المدينة لاعمال التجارة وسكن التجار والاجانب واستخدمت السفن الشراعية بشكل واضح في هذه المرحلة ، وظهر الشارع العريض بشكل واضح اضافة الى الشوارع والازقة واستخدام العربة كواسطة نقل ،ووجود ساحات الخضراء والمكشوفة بشكل كبير ،ظهور القصور لاول مرة في هذه المرحلة في جمدة نصر ، وظهرت العمارة التي ترتفع بأعلى من مستوى سطح الارض ، واستخدام الطابوق والفسيفساء المخاريط الملونة والاعمدة ، واستخدام اللبن(Riemchen) وهو لبن مستطيل الشكل مربع المقطع.

المدينة من عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي الحديث:

اصبحت المدينة منذ بداية العصر السومري الاول (فجر السلالات السومرية) الى نظام اجتماعي اقتصادي مركب واصبحت لها واجبات تنحو نحو المركزية وهكذا نشأ المركز القيادي الديني الدينوي للمدينة ونمت المدينة حوله ان الحرص الشديد على استمراية موقع المعبد في نفس مكانه اصبح ظاهرة شوهدت في كل مدن العراق ومنها معابد اور ونفر واشور وبابل، مركزية بناء المعبد وديموميته والتصاق القصر او مسكن الحاكم وادارته بالمعبد او تقربه منه كي يخلق نواة الحضرية الاساسية لتجميع كافة مرافق المدينة الاخرى حولها.

لقد عرفت المدن العراقية صورا كثيرة حيث تتداخل فيها المعالم المختلفة ففي تل اسمر مثلا لم تتميز المدينة بوجود نواة مركزية اساسية وانما بانتشار للمواقع الدينية والدينوية في اماكن مختلفة بين البيوت والاحياء لكن داخل سور المدينة(عصر فجر السلالات) ، كذلك في تل حرمل فالمعابد وان كانت متقاربة الانها تأتي مباشرة بعد بوابة المدينة ولاتبتعد كثيرا عن البيوت التي تتداخل بينها (العصر البابلي القديم)اما المدينة البابلية القديمة في تل محمد شرقي بغداد ، فلقد عثر المنقبون على نواة شبة مستطيلة في احد طرفيها المعبد وفي الطرف الثاني الطرف الثاني بناء كبير لمقبرة رئيسية مهمة ، وتحصر بينهما بيتا سكنيا كبيراينفتح على المعبد كما ينفتح على الخارج

ايضا ويحيط بالنواة زقاق او شارع يدور حوله فيعزله عن البيوت الاخرى المحيطة به والتي تكون بقية المدينة (من العصر البابلي القديم).

اما في المدن الكبيرة مثل اور وبابل واشور ونمرود ونينوى ودور شروكين (خرسباد)فلقد توضحت الصورة بشكل افضل ، وتعتبر أور من المدن ذات الاستخدامات الاجتماعية والاقتصادية المنظمة والى درجة عالية ، والمعابد والقصور الدينية والملكية وارشيف المملكة ومقابر ملوكها تجمعت شرق وجنوب صحن الزقورة في وسط المدينة بالذات ، تحيط بها كلها جدران عالية وبيوت عامة المدينة (العصر السومري الحديث).

ومن المدن العراق الجنوبية انها كانت تفضل محاذاتها للنهر من جهة واحدة كما في سبار وكوثى وخفاجي الا انها كانت تمتد على ضفتي النهر ايضا اذا اقتضت الحاجة كم هو الحال في بابل وكيش ونفر الا ان المركز الرئيسي للمدينة يبقى عادة من جانب واحد ، وهذا مانراه في بابل من عصر نبوخذ نصر الثاني الكلدي حيث تتجمع المنطقة الدينية والمدينة على الجانب الغربي لشارع الموكب في الجزء الشرقي من المدينة وحيث تتحول الى جهة معمارية واحدة على ضفة النهر الشرقية.

ولقد عزلت المنطقة الدينية باسوار عالية تحيط بها جميعا بينما عزلت المنطقة الملكية برفعها على شرفة عالية ثم بناء القصرين الجنوبي والمركزي وبوابة عشتارومعبد ننماخ فوقها، ان الطبيعة التضاريسية المختلفة في الشمال جعلت الاشوريون يتخذون طريقة جديد في اختيار مواقع مدنهم لاتشبه مدن الجنوب فقد كانو يختارون موقع مركز المدينة على ارتفاع صخري غير مستوي فتبنى القصور والمعابد والزقورات على حافة المدينة الشمالي وبقية ابنية المدينة تتدرج حسب الاهمية على الجهة جنوبا عن مركز المدينة ويكون السور منحني ليدور حول المدينة واذا ارادت التوسع هذه المدينة كانت مطرة بسبب الطبيعة الطبوغرافية للمنطقة ان تتوسع من جهة الجنوب وبذلك تتكون مساحة سكنية جديدة خارج السور مما يقتضى اعادة تسوير المدينة القديمة مع المدية الجديدة بسور اضافي ، ويقيمون لولي العهد الملكي قصر خارج مركز المدينة باعتباره غير مستلم لقيادة الدولة بعد على حافة النهر جنوب شرق المركز وبذلك ثبتت صورة المدينة الاشورية الى الابد وعلى شكل المخطط نفسه.بلغت المدينة الاشورية

ذروتها في التخطيط في نموذجين اثنين الاول هو مدينة كارتوكلتي ننورتا (تلول العقر) مقابل مدينة اشور على الضفة الشرقية لنهر دجلة وهي تنقسم بواسطة اسوار متوازية طويلة الى قسمين طوليين يلتصقان بضفة النهر ، وفي القسم المحصور بين النهر والجزء الثاني نرى المعبد والقصر وبالرغم من عدم اكتمال التنقيبات للمدينة لكن المخطط يبدو واضحا من خلال تخطيط اسوار المدينة المستقيمة والموازية لخط النهر، اما المثال الثاني والاكثر اكتمالافهو مدينة الملك سرجون الاشوري (دور شروكين) وهي مدينة شبه مربعة غير متساوية الاضلاع الا انها ترينا اسوارا مستقيمة للغاية ومحاولة لخلق زاوية قائمة عند التقاء ضلعين ولكنها وفي ذات الوقت تعطي مؤشرات لوجود شوارع مستقيمة ايضا وموازية للاسوار فالبوابات السبع الخارجية تتوزع بمعدل بوابتين على كل ضلع ماعدا الضلع الشمالية ففيه بوابة واحدة، وتشير الدلائل الى ان كل مجموعة من البوابات على ضلعين متقاربتين تسهل المرور عبر الاسوار في هذه المنطقة الى القلعة التي تجاورها او تقابلها.

ولقد انقسمت القلعة الملكية الى ثلاثة اجزاء:

أ- القصر الملكي فوق الشرفة

ب- معبد نابو فوق شرفة مستقلة داخلية

ت- بيوت الامراء المشيدة فوق الارض مباشرة والتي تحيط بالشرفتين ، ويحيط بكل هذه سور داخلي يتصل بالسور الخارجي في نقطتين فيشكل وحدة مدينة صغيرة داخلية مستقلة عن المدينة السكنية وبها اقسام مرتفعة واخرى بمستوى ارضي.

الشوارع

عرفت المدن العراقية نوعين من الشوارع في التخطيط العام في النوع الاول نرى الشوارع تنمو وتتلوئم ع اشكال القطع السكنية المختلفة كما انها تبقى رهينة بالمساحة المتروكة لها ، فتصبح عريضة فجأة او تضيق وقد تتحول الى ساحة ، وهذا ماسبب نشوء شوارع غير منتظمة.

اما النوع الثاني فهو الشوارع المستقيمة المنتظمة وهي مهيئة اصلا في المدن ذات الطابع الديني مثل بابل او الطابع العسكري مثل خرسباد لاستقبال حشود كبيرة ، ولقد عرفت هذه الشوارع في بابل باسماء الالهة او البوابات التي تقود اليها هذه الشوارع

هناك شوارع ترتبط باستعراض الجيوش واخرى بالاحتفالات راس السنة البابلية ، يتعبر شارع الموكب في بابل من اهم الشوارع في تاريخ الحضارة العراقية وذلك لانه تعرض عدة مرات الى تغييرات انشائية لكي يتماشى ارتفاعه وعرضه وقدرة تحمله مع طبيعة المباني الدينية والدينوية المجاورة.

الاسوار

شيد العراقيون منذ اقدم القرى التي عرفها الانسان ومنها سور تل الصوان قرب سامراء ، ولقد قام السومريون الاوائل بانشاء اسوار دفاعية حول مدنهم بمادة اللبن وبأساليب مختلفة كانت بادئ الامر بسيطة تتماشى مع بساطة العدة الحربية وامكانية هجوم الاعداء ، ومن هذه الاسوار نذكر السور المحيط بتل اسمر وخفاجي وتل العبيد، وكانت البوابات التي توجد بهذه الاسوار بسيطة وغالبا مدعومة بركائز جدارية لاسنادها ، وكانت الاسوار غير منتظمة وتدور مع حافات المدينة وتاخذ شكل محيط المدينة اما في العصر الاكدي فلقد بدأ النزوع الى الاستقامة والانتظام في المباني مثل حصن الدفاعي في تل براك ، الا ان الاسوار في العصر البابلي القديم تبدأ بأتخاذ شكل واجهات المعابد والمباني بأبراجها الدفاعية الموزعة على طول الجدران على شكل طلعات ودخلات كما في اسوار تل حرمل ، ولقد دعم مدخل بوابة السور ببرجين يزيدان من متانة الجدار ، اما في العصر الاشوري الوسيط فأن اسوار مدينة كارتوكلتي ننورتا الواقعة 3كم شمال اشور شيدت بأستقامة هندسية كاملة مما يوضح طبيعة المدينة الجديد بأكملها موقعاً وسكناً واسواراً ، توضح لنا سعة ومقدرة العسكرية العراقية القديمة في فهم الدفاع التي بدأت تتعقد يوماً بعد يوم بسبب ظهور أسلحة ثقيلة قادرة على هدم السور، وظهور الدول المركزية التي وبعكس دويلات المدناصبحت قادرة على تجييش اعداد هائلة من الجند وحصار المدن المعادية لفترات طويلة ، واستخدم الاشوريون الخنادق الجافة التي تحيط بالمدينة وتملأ بالماء عند الحصار، وتشييد بوابات ذات غرف حراسة متعددة وسلالم تقود الى اعلى الاسوار وحصنوها بأبواب ثقليلة تقفل من الداخل برتاج ومتاريس من الحديد والبرونز والخشب ، كما تعدد الممرات فوق مستويات الاسوار بحيث يمكن للعربية الحربية المرور فوقها.

ومن اهم ابداعات الاشوريين هو تشيد ساحات امامية مسورة كما في نينوى وخرسباد الغاية منها تلقف اعداد المهاجمين للبوابات وحصرهم داخلها ثم الهجوم عليهم من فوق الاسوار وابراج البوابة للقضاء عليهم كالمصائد امام البوابات ، ومنهم انتقلت الى البابليين الاانهم قاموا بتشييد هذه الساحات خلف المداخل داخل السور بحيث تكون هي موقع المرحلة الثانية لتصفية المهاجمين اذا لم تفلح البوابات في صدهم.

اما اسوار مدينة بابل بناءها نبوخذ نصر بثلاثثة خطوط تدور حول المدينة الداخلية كان السور الاول من الداخل اقوى وامتن هذه الاسوار وبه البوابات التي ترتبط بها جدران الساحات المغلقة التي اشرنا اليها في اعلاه ، وكانت الابراج تبرز على وجهي السور في نقطة واحدة وكانت المسافة بين برج واخر حوالي(٣٨-٤٩م) ويلي هذا السور سور اخر اضعف منه قليلا ويتصل به في مناطق البوابات ايضا ، ثم السور ثالث له ابراج متباعدة على الوجه الخارجي فقط ، ثم خندق المائي الذي يحيط بالمدينة ، تبلغ اطزال الاسوار الداخلية لمدينة بابل حوال 3،8كم وبها ثماني بوابات سميت بأسماء الالهة وتنطلق منها شوارع مستقيمة الى داخل المدينة معظمها يوازي شارع الموكب، اما المدينة الخارجية فكانت في معظمها خالية تستغل للزراعة الموسمية ولاحتواء اللاجئين الذي يبحثون عن حماية اذا ماهاجمهم الاعداء وتشير الدلائل المعمارية الى ان تحصينات الوركاء ونفر وكيش وبورسبا وسبار واور لم تختلف كثيرا عن تحصينات بابل وان كانت ابسط منها في الحجم والاطوال.